الباب السادس والعشرون

الشعب والدوله

الفصل الأول

نبذة تاريخية

١ — ماركو بولو يزور كوبلاى خان

رحالة لا يصدَّقون — يندق فى الصين — جمال هانجتشان ورخاؤها — قصور پيچنج — فتح المغول — چنكيز خان — كوبلاى خان — أخلاقه وسياسته — دساؤه — « ماركو الملايين »

فى عصر البندقية الذهبي حوالى عام ١٢٩٥ أقبل على المدينة رجلان طاعنتان فى السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلوهم العثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذى غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما تردد مواطنوهم فى الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم جابوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شامخة ، واجتازوا صحارى ملأى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ، وأقاموا عشرين عاماً فى الخطا(*) ، وخدموا أعظم ملك فى العالم كله . وأخذوا يحدثون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحاكما

(*) الاسم الذى يطلقه الروس على بلاد الصين وهو فى الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاى Cathay . (المترجم)

أعظم ثروة ، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوربا ؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة ، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب ، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان ، وعن أمم تقف بكارة الفتيات فيها حجر عثرة فى سبيل الزواج ، وأمم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهنّ وهنّ راضيات[١] . ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم ، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثرثرة لقب « ماركو الملايين » لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوءاً بالأعداد الكبيرة العجيبة[٢] .

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير ، بل رضوا به مسرورين ، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية ، وأتت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم فى مدينتهم . ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى فى عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو ، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألقى هو فى أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملا ، أخذ يسلى نفسه بأن يملى على أحد الكتبة أشهر كتاب فى الأسفار فى آداب العالم ؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسى ، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة الپامير ، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان ، ثم اجتازوا صحراء جوبى إلى تنجوت ، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شانجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلا أذلاء من العرب الناشئ[٣] .

(*) شانجتو هى المدينة التى يسميها الشاعر الإنجليزى كولردج « زندو » ، ولم يرتد أحد من الرحالة بعد ماركوپولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسية الوسطى التى وصفها إلا فى عام ١٨٣٨ .

ولم يكونوا يظنون أنهم سيقيمون فى الصين أكثر من عام أو عامين ، ولكنهم وجدوا فى تلك البلاد من الأعمال المجزية والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاى ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى فى مناصب الدولة حتى عين حاكما على هانجتشاو . ويصفها ماركو فى كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرقى من بلاد أوربا بأجمعها فى جمال مبانيها وجسورها وفى عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسحرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاها لمرور العربات وأخراها لمرور السفن محملة بالبضائع التى يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عددما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثنى عشر ألفا ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج انحدارها من الشوارع إلى أعالى العقود ... وفى داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التى يخطئها الحصر ، والممتدة على جانبى شوارعها . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسى ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيما من أحد طرفى المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى فى اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسى ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها المجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع فى كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...

والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآجر ... والشارع الرئيسى فى المدينة مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فمملوء بالحصباء الصغيرة ومن تحتها مصارف مقمية تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع مرورها على هذه الحصباء جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ، ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لستة أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة رجالا كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التنزه والاستمتاع بركوبها ...

ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مسارح لصيد الحيوان على اختلاف أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلا ، وتحمل إليها منه فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات باردة يشرف عليها خدم وخادمات . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء أن يستحموا فيها بالماء البارد منذ صغرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلين كلهم أن يغتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...

وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للعاهرات وهن يبلغن من الكثرة حداً لا أجرؤ على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ، ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات من الخادمات .

وفى شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبى شارع المدينة الرئيسى بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال ، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صغرهن الرقة والنحافة ، وليس فى وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتحلين به من حرير وجواهر[٣] .

وقد أعجب ماركوبولو بمدينة بيچنج (أو كمبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجابه بهانجتشاو نفسها ، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملايينه عن وصف ثروتها وتعداد عامرها . وكانت ضواحى المدينة الاثنتا عشرة أجمل منها نفسها ، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا فى هذه الضواحى كثيراً من البيوت الجميلة[٤] وكان فى المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة . وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً ، وكان يدخلها فى كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها . وقد كان للخان قصور فى هانجتشاو وشانجتو وغيرها من المدن ولكن أكبر قصوره كان فى بيچنج نفسها . وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصعد إليه بدرج من الرخام أيضاً . وكان مبناه الرئيسى كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس » . وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف ، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة ، وبما يغطى سقفها من قرميد مختلف الألوان ، ويقول إنه لم ير فى حياته مدينة فى مثل غناها ولا ملكا فى عظمة ملكها[٥] .

وما من شك فى أن الشاب البندقى قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقرأها ، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاى وأسلافه المغول بلاد الصين . وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدباء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهلها الأقوياء ، فاندفع المغول (أى البواسل) إلى شن الغارات المستيئسة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار چنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حمير من الخشب ، أو يقطعهم إربا ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوه فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوبى ؛ وهجم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى المخربة فى الظلام دون أن تعثر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعجه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجللهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى چوينتنج — فو وصمد للحصار حتى قتل المحاصَرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كنتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشى يوفو القائد الصينى الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وبنفسه فى البحر فماتا معاً . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفاتح المغولى . وأمر كوبلاى أن يحتفل بجنازة الإمبراطور احتفالا رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهى الأسرة المغولية التى حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاى نفسه بربريا همجيا . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته الغادرة لأن الغدر كان من الأخلاق الشائعة فى تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطنى أبى أن يعترف بحكومة كوبلاى وفاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاى فى السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب فى سجنه تلك القطعة التى تعد من أشهر ما كتب فى الأدب الصينى كله :

إن سجنى لا يضيؤه إلا الصهيد ولا تدخله نسمة من نسمات الربيع لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت فى أن أقضى على نفسى من فرط ما أثر فى من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولى ولا يقضى علىّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقرين جوانحى مالا تستطيع النائبات أن تغتصبه منى ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسى وأطوى قلبى على آلام لا حد لها كما لا حد للسماء .

واستدعاه كوبلاى آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلا : « أى شىء تريد ؟ » فأجابه ون بقوله : « لقد عطف علىّ إمبراطور سونج فجعلنى وزيراً لجلالته ، وليس فى وسعى أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابه كوبلاى إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوع واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية(٧) .

ومع هـذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلغى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قبل هو وأتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استخالوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . ومما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تينتسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين مذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهلين فى أيام القحط ، وألغى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات(*) ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عليها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح المجمع العلمى الإمبراطورى(٩) ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى پيكين كانت لروعتها وكثرة

(*) وقد كتب ماركوپولو فى ذلك يقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون ملء عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والتيلم . وقد كان لهذا الكرم العظيم المدهش الذى يعامل به الخان العظيم الفقراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه » .

عامرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر الصين له مثيلا من قبل .

ويقول ماركوبولو : « وقد كان بولو حاضراً فى البلاد حين كان هذا كله يحدث فيها »[١٠] واتصل الشاب بالخان وتقرب إليه واستطاع بذلك أن يصف لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلا ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنه كان للخان فضلا عن زوجاته الأربع اللاتى يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السراري جيء بهن من أنجوت فى بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بجمال نساء تلك البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن الذوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليجندوا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من الفتيات حسب الأوصاف التى كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما مثلن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين فى قصره ... ثم يعهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات فى القصر لتتأكد من أنها ليس فيها شيء من العيوب التى تخفى عن الأعين وأنها تنام نوماً هادئاً ، ولا تغط فى أثناء نومها ، ولا تنبعث رائحه كريهة من أى جزء من أجزاء جسمها . فإذا ما نجحن فى هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس تقيم فى حجرة جلالته الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين فى خلالها كل مايطلب إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد[١١]

* * *

وبعد أن أقام ماركوبولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة فى بلاد الصين اغتنم ثلاثتهم فرصة قيامهم بمهمة إلى الفرس ، أوفدهم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاى برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً فى ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين، وقضوا فى طوافهم بحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفى رحلتهم البرية إلى طرابزون على البحر الأسود وأخيراً فى رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوربا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا(*) . وعمر ماركو طويلا فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجى نفسه من العذاب فى الدار الآخرة بمحو ما ورد فى كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أفحمهم برده عليهم : « إنى لم أذكر فى كتابى نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة فى حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس فى تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج الماجن اسم « ماركو الملايين » :

٢ — أسرة منج وجنج

سقوط المغول — أسرة منج — غزو المنشو — أسرة چنج
— ملك مستنير — شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون، فسرعان ما دب الاضمحلال فى أسرة يوان متأثرة بانهيار سلطان المغول فى أوربا وغرب آسيه وفى ذوبان المغول فى جسم الشعب الصينى نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المتحذلقة لنعلل بها هذه الظاهرة التى تتكرر فى جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(*) لقد أثبت كوبلاى اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء النقرس .

كالصين مسمة الرقعة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاى خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولى أثراً يذكر فى عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله فى الأدب الصينى من الروايات والمسرحيات .

وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنوهم وغلبوهم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل پيكين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أى المتألقين) . وجلس على العرش فى الجيل التالى ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستمتعت الصين فى عهد يونج لو مرة أخرى بعهد جديد من عهود الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجى ؛ وبينما كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادية اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت پيكين . تلك هى جحافل المنشو .

وكان المنشو شعباً تنجوسياً ظل قروناً كثيرة يعيش فى البلاد التى تعرف الآن باسم منشوكو (أى مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم فى أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأمر زوجته أن تنتحر(*) ، ثم شنق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه :

« نحن الفقراء فى الفضيلة ، ذوى الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلى القدير .

(*) وصدعت بما أمرت ، وتقول الروايات المأثورة إن الكثيرات من الأسرى قد حذون حذوها .

« لقد غرر بى وزرائى ، وإنى لأستحى أن ألقى فى الآخرة آبائى وأجدادى ، ولهذا فإنى أخلع بيدى تاجى عن رأسى ، وأنتظر وشعرى يغطى وجهى أن يقطع الثوار أشلائى ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبى »[١٥] . ودفنه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشنج (الطاهرة) التى حكمت الصين حتى عهدنا الثورى الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستمتعت البلاد تحت حكم كانج شى بعهد من الرخاء والسلم والاستنارة لم تعرف له مثيلا فى تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو فى السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور فى إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والتركستان . وما من شك فى أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شى بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجزيب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلا نشيطا قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة فى الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل فى الوقت نفسه على أن يلم بعلوم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف فى أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائى . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شىء من الإسراف أو الترف ويقتصد فى نفقات الدولة الإدارية ويفخر بالعمل على رفاهية شعبه[١٦] . وازدهرت الآداب والعلوم فى أيامه بفضل تشجيعه إياها ومناصرتها ؛ وعادفن الخزف إلى أعلى ما وصل إليه فى أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً فى الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التى كان يتبعها التجار الأوربيون فى ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموفق (١٦٦١ — ١٧٢٢) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إنى

لأخشى أن تتعرض الصين فى مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التى تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار[١٧] » .

وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوربا مرة أخرى فى عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونج . وكان هذا الإمبراطور شاعراً أنشأ ٣٤٫٠٠٠ قصيدة إحداها فى «الشاى» وصلت إلى مسامع ڤلتير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »[١٨]، وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التى يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس فى إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين (١٧٣٧ — ١٧٩٦) ، ونزل عن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفى (١٧٩٩). وحدثت فى آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كانج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بعثة برياسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونج فى عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التى تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التى يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونج إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى جورج الثالث :

« إن الأشياء العجيبة البديعة لاقيمة لها فى نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلىّ من تعيين ممثل لكم فى بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتى ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يغادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتاع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »[١٩] .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام عن هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحضارة الفذة المستنيرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

الفصل الثانى

الصينيون ولغتهم(*)

تعداد السكان — مظهرهم الخارجى — ملبسهم — خصائص
اللغة الصينية — خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عنصر الصورة التى سنرسمها فى هذا الفصل هو عنصر العدد ؛ فالصينيون كثيرون ، وليس عددهم معروفاً بالضبط ، وكل مايقال عنه من قبيل الحدس والتخمين . ويظن بعض العلماء أن سكان الصين فى عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٤ وأنهم وصلوا فى عام ٢٠٠ ق . م إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٨ وفى عام ٧٢٦ ق . م إلى ٠٠٠ر٥٠٠ر٤١ وفى عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٨٩ وفى عام ١٧٤٣ إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥٠ وفى عام ١٩١٩ إلى ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٣٠[٢٠] . ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى فى الصين فى القرن الرابع عشر « مائتى مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية »[٢١] وإحصاء السكان فى الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله[٢٢] . ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحة هذه اللوحات ، ولا مدى صحة التقريرات التى يقال إنها توضع على أساسها ، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالى أربعمائة مليون من الأنفس.

ويختلف الصينيون فى أجسامهم ، فهم فى الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم فى الشمال ، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية ، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام ، شديدو المقاومة للأمراض ، سريعو التأقلم فى كل مناخ ؛

(*) إن هذا الوصف الذى نصف به المجتمع الصينى لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع فى القرن التاسع عشر . أما ما حدث فى هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فسندرسه فى الفصول التالية . ويجب أن يؤخذ كل ما نورده من وصف له بالحذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون مماثلة فى عهد طويل أو فى رقعة من الأرض واسعة .

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا فى مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهر فى قواهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلا جذاباً . نعم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظمى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملان أحدهما جثمانى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً واضحاً إلى الحد الذى يتصوره المرء مما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلا . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات يبيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجبهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال[٢٣] . وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقصه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكامهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حلق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلفى وجمعوه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم المخطئ ومظهراً من مظاهر الكبرياء[٢٤] . ولحاهم لا تطول ، وكانوا يحلقونها على الدوام ، وقلما كان الواحد منهم يحلق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الحلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتركون رؤوسهم عارية ؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم فى الشتاء قلانس من المخمل أو الفراء ذوات حافات منثنية إلى أعلى ، وفى الصيف قلانس مخروطية الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعلو الواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن ، كرة ملونة وشريط حريرى .

أما النساء فكن يضعن على رءوسهن ، إذا مكنتهن من ذلك مواردهن ، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالبهرجان والحلى أو الأزهار الصناعية ، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة ، ولما كانت أرض المنازل تصنع فى كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصينى كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه . وقد نبتت فى بلاط الإمبراطور لى هو — چو (حوالى ٩٧٠ ب. م) عادة ربط أقدام البنات وهن فى سن السابعة بأربطة ضيقة لكى تبقى صغيرة فتمشى السيدة الكبيرة تخطر خطراً بعجب به الرجال . وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم ؛ بل إن الكلمة الصينية التى معناها القدم كان يحرم ذكرها فى حضرة السيدات[٣٥] . وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة ، حتى لقد كان الكذب فى حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج[٣٦] . وحاول كانج شى أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان إبطالها أثراً من آثارها الصالحة .

وكانت ملابس الرجال هى السراويل والجلابيب ، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق . وفى الشتاء كان السروال يغطى بالطاق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر فى بعض الأحيان ، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلا ونهاراً طول فصل الشتاء ، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد[٣٧] . وكان المئرز مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كُمّان كبيران يغنيان عن الجبوب ، والصينيون لا يقولون إن الرجل وضع شيئاً ما فى «جيبه» بل يقولون إنه وضعه فى « كمه » أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء فى الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما فى المدن فكن يلبسن فوق السراويل تنباً(*) . وكان الحرير كثيرا فى المدن يستوى فى ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أثداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين فى هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لا يختلفون فى ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لا تكاد تختلف فى الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذى يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك فى أن نمطاً من الأنماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر الناس . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنا لنعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهى أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التى ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة فى الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلة ، ولكننا لا نجد

(*) هى المعروفة بالجونلات .

أثراً لشيء من هذا فى أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلا أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثمائة أو أربعمائه لفظ صوتى ذى مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هى التى تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة فى اللغة الكتابية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغمات » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغنى به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغمات ، وتجعل كل صوت يؤدى أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلا قد يؤدى تسعة وستين معنى كما أن للفظ شي تسعة وخمسين ، وللفظ كو تسعة وعشرين[٣٠] . ولسنا نعرف لغة من اللغات قد بلغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التى استخرجت من هونان والتى يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لاتختلف كثيراً عن الرموز المستعملة فى هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلا من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة[*] فإن اللغة الصينية هى أقدم اللغات التى ينطق بها الناس فى هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون فى بادئ الأمر يعقدون عقداً فى خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين إلى تمييز آنيتهم بعضها من بعض هى التى أدت إلى الرموز المصوِّرة[٣٢] .

(*) نعنى بهذا ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا يتكلمون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لايستعملونها فى كلامهم . وليست اللغة القبطية هى اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألفاظها . (المترجم)

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة ، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية ؛ وقد سمى نحو مائتين ، وأربعة عشر رمزاً منها « أصولا » لأنها عناصر أساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة ، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها « للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض »(*) كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته(**) . ولاتزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية ، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها « الصباح » . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان « الضوء » ؛ والفم والطائر معاً معناها « الغناء » ، والمرأة تحت سقف معناها « السلام » ؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على « الالتواء » يتكون منها الرمز الذى منه « خَطِر » ؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعنيان « شرشرة » ؛ والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين ؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة(٣٣) .

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بمحافظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات « الحاضرة » . والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها ، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(*) فى اللغة العربية شىء من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤديها فى العربية لفظ الكميت والأبطح ، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط مبلغه فى اللغة الصينية إذ يؤديها فيها رمز واحد (المترجم)

(**) وهذا المعنى يؤديه فى العربية لفظ أصقع . (المترجم)

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذى نحتاجه لكى نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلمة من الكلمات ، رأينا أن فى العبارات التى نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظلماً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصينى يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصينى العادى يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضح ميزة لهذه اللغة — التى لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هى أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع فى نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلا ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة فى مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة فى جوهرها على حين أن لغة الكلام قد تفرعت إلى ماينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان فى وسع الصينى غير الأمى أن يقرأ الأدب الصينى الذى ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفى عام كاملة ، وإن كنا لا نعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التى كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التى ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الفيض الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً فى تمسك الصينيين بعاداتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت فى البلاد ، وكانت هى القالب الذى صبت فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل فى هذه الظاهرة الفذة التى امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات ، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابى فى حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأناً ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجماد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التى جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل فى صورها الكاملة جميع مافى الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نثق كل الثقة من أن الطرق المختلفة التى ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز فى القرن السابع عشر وسير وُنْلدرس فى هذه الأيام يحلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واحدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التى كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً فى الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التى وصل إليها الشرقى لنتيجة منطقية رهيبة : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

الفصل الثالث

الحياة العملية

١ — فى الحقول

فقر الزراع — الوسائل الاقتصادية — المحصولات — الشاى — الطعام — صبر أهل القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التى يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب ، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصينى من دقة وعمق ، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف . وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هى جهود الصينيين أنفسهم ، لأن التربة الخصبة لا تخلق خلقاً بل تنشأ إنشاء . وما من شك فى أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالا يكافحون الأدغال والغابات ، والوحوش والحشرات ، والجفاف والفيضان ، وأملاح التربة والصقيع ، حتى استطاعوا فى آخر الأمر أن يحولوا تلك البرارى الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة ، وكان لا بد لهم أن يعودوا حيناً بعد حين إلى خوض هذه المعارك لكى يحتفظوا بما نالوا من نصر ، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلا استحالت الأرض صحراء مجدبة(*) ، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استحالت حراجاً وغابات كثيفة .

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً مريراً ينطوى على أخطار جسيمة ، وكان يزيد من مرارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

(*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التى تقطع أشجارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة وتحدث وتخلو من الوثائق التى تحول دون انسياب السيول على الوديان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذ كان الزراع يقنون هذه الإغارة بأن يعيشوا فى جماعات صغيرة لا فى منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزرع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة فى هذه الأيام . وكانوا فى بعض الأحيان يفلحون الأرض بالمحاريث ، وقد اتخذوها أولا من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالفأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجدونه من المخصبات الطبيعية ، ولا يستنكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والآدميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يجرون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال فى الصخور الصماء ليصلوا بها إلى مجرى مائى بعيد أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو المخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجر فى كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زرعات فى العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر فى التاريخ[٢٤] .

وكانت أهم الحبوب التى زرعوها هى الأرز والذرة ويليها فى الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب فى يوم من الأيام . أما شرابه المحبب إليه ، ومحصوله الذى بلى الأرز فى أهميته ، فهو الشاى . وكان استعماله فى مبدإ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار فى عهد أسرة تانج من المحصولات التى تصدر إلى خارج البلاد ،

والتى يتغنى بها الشعراء فى أشعارهم . ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاى تتغنى بمديحه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين[٣٥] . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل المقوية كالثوم والبصل ، وعشرات المئات من أنواع الفاكهة[٣٦] ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأناً ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحياناً فى حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج[٣٧] ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والمجارى المائية العذبة .

وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف ، والمكرونة ، والشعرية ، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا لحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنية لحم البط ، وكانت أرقى المآدب التى تقام فى پيكين تحتوى على مائة صنف من أصناف البط[٣٨] . وكان لبن البقر نادراً وكذلك كان البيض قليلا وقلما كان يؤكل طازجاً . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو فى الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء ، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنتهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصغار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبغال والجرزان وثعابين الماء والقطط والكلاب[٣٩] . وكان الصينيون يحبون لذيذ المأكل ، ولم يكن من غير المألوف أن تشتمل مائدة الرجل الغنى على أربعين صنفاً ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعاً يأكلون فيها و شربون .

أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله فى طعامه الذى كان

يتناول منه وجبتين فى اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات فى مختلف الأقاليم والأوقات. وكان فى وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد فى أيد قليلة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ، كما حدث فى أيام الإمبراطور شى هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدى إلى تركيز الثروة مرة أخرى[٤١] . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضى ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل فى كل قرن عن الذى قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هى الفقر الذى لا مثيل له إلا فى أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالا أمريكيا ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل أقل من الريال فى اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع فى كل عام[٤٢] . وقد ظلت الصين عشرين قرناً كاملا تعانى القحط بمعدل مرة فى كل عام[٤٣] ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمق ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعى واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان فى بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام فى البعض الآخر يزيد على حاجة الأهلين . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان فى بعض الأحيان يتلف ما يتركه المالك والجابى للزارع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذى يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويغرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه الكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة الفانية هو قبعة وحفنة

من الأرز »[٤٤] . وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون فى عملهم ، فلم تكن ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها وسرعتها . ولم يكن لهم أيام رَاحة فى آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل فرصة يستريح فيها من عناء كدحه ؛ ويخفف فيها بالمسرحيات والأساطير ما فى سائر فصول السنة من اكتئاب فإذا ما ولى الشتاء بزمهريره ووجهه الكالح ، ولانت تربة الأرض بما سقط عليها من مطر الربيع بعد أن ذاب ما تراكم عليها من ثلج الشتاء ، خرج الفلاحون مرة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويغنوا فى مرح وحبور أغانى الأمل التى تحدرت إليهم من ماضيهم السحيق .

٢ — فى الحضارة

الحرف اليدوية — الحرير — المصانع — الطوائف — الحمالون — الطرق والقنوات — التجار — الائتمان والنقود — تجارب فى العملة المتداولة — التضخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة فى تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل فى كافة أنحاء الأرض قبل القرن الثامن عشر . فمهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيه السحيق وجدنا الحرف اليدوية منتشرة فى البيوت والتجارة رائجة فى المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هى صناعة النسيج وتربية دود القز لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بها النساء فى أكواخهن أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة فى البلاد ، وترجع بدايتها فى الصين إلى الألفى السنة السابقة لميلاد المسيح(*)[٤٥] . وكان الصينيون يطعمون

(*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من شرانق ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الدود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان النساطرة من الصين إلى أوربا حوالى عام ٥٢٢ م[٤٦] . وانتقلت هذه الصناعة فى القرن الثانى عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت الى إنجلترا فى القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التقطيع ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارئ لايصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠ر٠٠٠ دورة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٩ر٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً[٤٧] . وكانت الديدان الكبار توضع بعدئذ فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرانقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرانق وألقيت فى ماء ساخن فخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وصنعوا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله[*] ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة لميلاد المسيح ، ولذلك وُجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت هى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدحام المدن بالسكان العاملين المجدين الذين جعلوا الصين فى أيام كوبلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوربا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول :

« لكل حرفة من الحرف مائة متجر يهيئ كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لايعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالرقة والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم »[٥٠] . وكانت هذه النقابات تعمل ما تعمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتنظم

(*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بنسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم[٤٨] كما يعرض عليهم غيره آنية من الخزف أو يبسط أمامهم ملفا من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم فى الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعى فى تلك البلاد ، مقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة فى هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات فى الصين تضطلع بكثير من الواجبات التى عهد بها السكان الغربيون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل فى تنفيذها . وقد قللت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التى يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوى . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث فى هذه الأيام بين مبدأى التخلى وترك الأمور تجرى فى مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعمالهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأنا كالحلاقين والحمالين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة[٥١] . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم فى الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع فى أيام القحط ويباعون بعدد قليل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب فى كل وقت أن يبيع بناته أو عبيده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه فى بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاّك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدولة[٥٢] .

وكانت منتجات العمل تثقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الحدوج فوق أكتاف الحمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عملهم أو يتضجرون منه[*] ، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الحمير أحياناً ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الآدميين قد بلغت من الرخص حداً لا يشجع على رقىّ النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتعبيدها .

ولما أن أنشئ أول خط حديدى فى الصين بين شنغهاى وووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر[٥٣] . وقد أنشئت فى أيام شى هوانج — دى وكو بلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لايزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لكى تحجب الشمس ، وكانت القناطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥٫٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشاو بتيانشين والتى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلا ، والتى بدئ

(*) إن اللفظ الإنجليزى لهذه الكلمة وهو Cooli هندى الأصل ولعله مشتق من اللفظ التميلى Kuli ومعناه الخادم المأجور .

فى حفرها سنة ٣٠٠ م وتم فى عهد كوبلاى خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لايقطع غدوها ورواحها فى الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للملايين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات فى المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متفقين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لايقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغربيات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه[٦٤] ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم فى هذا طبقة الزراع ، ويأتى الصناع فى المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة - على حد قول الصينيين — لا تجنى الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا ونقلوا غلاّت حقول الصين وسلع متاجرها إلى جميع أطراف آسية، وصاروا فى آخر الأمر الدعامة المالية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تعرقلها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قُطاع الطريق فى البر والقراصنة فى البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها فى آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بحراً وبالسير فى طرق القوافل التى تخترق التركستان[٦٥] وكانت أشهر الصادرات هى الحرير والشاى والخوخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفِصْفِصَة[*].

(*) هو المعروف بالإنجليزية باسم Alfalfa واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفِصْفِصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والفول السودانى والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجارى نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بفوائد عالية تبلغ فى العادة نحو ٣٦٪ ، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت فى بلاد اليونان والرومان[٥٦] . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هـذه الأخطار ، ولم يكن أحد يحبهم إلا فى مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »[٥٧] . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداف البحرية والمدى والحرير .

ويرجع تاريخ أقدم عمله معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل[٥٨] وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية فى عهد أسرة شين ، وكانت العملة الصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل[*] . ولما أخفقت التجربة التى قام بها وو دى والتى أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعيض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هـذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفى بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج فى عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها فى خزائن الحكومة وأن يصدر بدلا منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائرة »، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطمأنينة التى تحمل بها الأمريكيون

(*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة فى الصين فى هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهى عملة قيمتها $\frac{1}{200}$ أو $\frac{1}{300}$ من الريال الأمريكى كما يصنع منه الشئيل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متاعبهم فى عام ١٩٣٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلا ريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة فى عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة فى عام ٩٣٥ م والحكومة الوطنية فى شنجان عام ٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة فى عهد أسرة سونج فى إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات[٥٩] .

ويقول ماركو بولو عن خزائن كوبلاى خان : « إن دار السك الإمبراطورية تقوم فى مدينة كمبوك (پيكين) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التى تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقان بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التى يؤخذ بها لحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدها فى مقام الذهب[٦٠] . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذى أخذ من ذلك الحين يدفع عجلة الحياة الاقتصادية فى العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

٣ — المخترعات والعلوم

البارود — الألعاب النارية والحروب — ندرة المخترعات الصناعية — الجغرافية — الرياضيات — الطبيعة — « فنج شوى » — الفلك — الطب — تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون . فقد اخترعوا البارود فى أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا فى ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه فى صنع القنابل اليدوية وفى الحروب إلا فى عهد أسرة سونج (عام ١١٦١ م) . وعرف العرب ملح البارود (نترات البوتاسا) — وهو أهم مركبات البارود — فى أثناء

اتجارهم مع الصين وسموه « الثلج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب فى إسپانيا فى الأغراض الحربية ، ولعل سير روچر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله بده — بروكى الرحالة الذى طاف فى أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق چو قد اخترعها فى عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب فى عودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »[٦٣] . وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوراً على تحديد الاتجاهات فى بناء المياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية فى السونج — شو وهو كتاب تاريخى مؤلف فى القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفلكى چانج هنج (المتوفى فى عام ١٣٩م)، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء فى كتاب ألّف فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعزو استخدامها فى هذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسيرون سفنهم بين سومطره وكانتون[٦٣] . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة فى أقوال الأوربيين هى ما ذكر عنها فى قصيدة لجنيو ده بروڤن[٦٤] .

على أننا لانستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة فى ميدان الاختراعات الصناعية رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخزف . ولقد كانوا مخترعين فى الفنون ؛ وقد ارتقوا بها فى صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها فى غير بلادهم أو فى غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى

عام ١٩١٢ قانعين بالجرى على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحتقرون الأساليب والحيل التى تغنى عن العمل الشاق ، ويضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم فى احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التى اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليله منذ عام ١٩٢٢ ق م[٦٥] ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجه وتركوا معظم ما تخبئه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحائط ، ولم يخترعوا المسامير المحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها[٦٦] . وقد ظلت حياة الصين الصناعية فى أهم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفى العام التى بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها فى هذا شأن الحياة الصناعية فى أوربا من أيام بركليز إلى عهد الانقلاب الصناعى.

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية فى الزراعة وفى تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألفت رسالات قيمة فى علم تقويم البلدن[٦٧] . وقد خلف عالمها الرياضى المعمر چانج تسانج (المتوفى فى عام ١٥٢ ق . م) وراءه كتاباً فى الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — چى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التى تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها[٦٨] .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) فى عام ١٣٢م(*). ولكن علم الطبيعة الصينى قد ضلت معظم أبحاثه فى دياجير الفنج چوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة(**). وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة فى بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض(٧٠). وكان فى وسع الفلكيين فى أيام كنفوشيوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً، وأن يضعوا أساس التقويم الصينى بتقسيم اليوم إلى اثنتى عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثنى عشر شهرا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهراً آخر فى كل بضع سنين لكى يتفق التقويم القمرى مع الفصول الشمسية(٧١). وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة فى السماء؛ وكانت أعياد السنة تحددها منازل الشمس والقمر، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم.

وكان الطب فى الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية. وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة چو تعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم فى الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة فى الاختبارات. وقد أمر حاكم صينى فى القرن الرابع

(*) وكانت الآلة التى اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من النحاس قائمة على لوالب دقيقة حول وعاء نحيم فى وسطه ضفدعة فاغرة فاها. وكان كل تنين يمسك فى فمه كرة من النحاس؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها فى فم الضفدعة؛ وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هج وقالوا إنه مشعوذ حتى جاءهم رسول وقال لهم إن زلزالا وقع فى أحد الأقاليم النائية(٦٩).

(**) كان المنهج حي (الريح والماء) فنا واسع الانتشار فى الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع البيوت والقبور فى الإقليم ومهاب الريح وتيارات الماء فيه.

قبل المسيح أن تشرح جثث أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظرى ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب جانج چونج — تنج فى القرن الثانى عدة رسائل فى التغذية والحميات ظلت هى النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دو فى القرن الثالث كتاباً فى الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذ يخدر المريض تخديراً تاما . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شىء . وكتب وانج شو — هو فى عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب(٧٢)

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج — چنج وصفا شاملا لسبعمائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاو يوان — فانج كتابا قيما فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلا . وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج(٧٣) . وأنشئت فى أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبى هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال فى اليوم الواحد(٧٤) . وكان الأطباء يطنبون ويتحذلقون فى تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحميات مثلا ألف نوع ، وميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدرى ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، ولعلهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر فى الصين فى أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهلين ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر فى بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاما بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق[٧٥] . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقى والتخلص من الفضلات .

وكان الصابون من مواد الترف التى لا يحصل عليها إلا الأثرياء للمتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل فى وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب فى أوربا من عهد أبقراط إلى عهد پاستير . وغزا الطب الأوربى بلاد الصين فى صحبة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

الفصل الرابع

دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك — عبادة الطبيعة — عبادة السماء — عبادة الأسلاف — الكنفوشية — الدولة — إكسير الخلود — الوذية — التسامح الدينى والتصوف — الإسلام — المسيحية وأسباب إخفاقها فى الصين

لم يقم المجتمع الصينى على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة ، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصينى استمساكا بالخرافات ، أو أكثر منه تشككا أو أعظم منه تُقى ، أو أكثر انصياعا لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية . ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية فى التحرر من سيطرة الكهنة ، ولم يسعد قوم غير الهنود بآلهتهم أو يشقوا بهم بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا . ولسنا نستطيع أن نفسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له فى التاريخ ، وأن نقر بما فى فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا ينضب .

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة ، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها ، وإجلال شعرى لما على الأرض من صور رهيبة ومافيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد ، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدونهما عنصراً من عناصر الوئام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما فى السماء من قوى خفية ، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعى ؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة النماء ، وكان

الشبان والفتيات فى أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون فى الحقول ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج . ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن فى تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد فى أقوال المؤرخين الذين أطنبوا فيما بعد فى وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة إلا بعد أن يمهدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة(٧٦) .

وكانت الأرض والسماء فى هذا الدين البدائى مرتبطتين إحداهما بالأخرى ، لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين . وكان نظام السموات ومسلك الآدميين الخلقى عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران من نظام عالمى لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق الطيبة فى اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الكل شأنها فى هذا شأن القوانين التى تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقى ، هذا الترتيب القدسى ، الذى يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ، والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله . لقد كان هذا تفكيراً عجيباً ولكنه تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصى حين يصلى الشعب لتين — للسماء المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة البعد عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين — التى تسيطر على السموات والأرضين والأناسى . ولما تقدمت دراسة الفلسفة أضحت فكرة « السماء » الشيئية مقصورة على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيئية فأضحت عقيدة الطبقات المتعلمة ودين الدولة الرسمى(٧٧) .

ومن هاتين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومى وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظماء الرجال التى تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون فى كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون فى العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم فى مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن فى مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التى تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن فى تخليدها تعظيما للطرق القديمة التى كانوا يسيرون عليها وسداً لطريق البدع وإقراراً للسلام فى أنحاء الإمبراطورية . وما من شك فى أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التى لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفلح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت فى نظر الفيلسوف الصينى صعاباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل فى كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم مافيها من عوامل التفرق والانفصال التى تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها فى وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة التقاليد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم فى هذه العظمة التى لا يحدها وقت وفى ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلا بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم فى المكانة الثانية بعد السماء نفسها. فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقربون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر.

ولم تكن الطبقات الراقية المثقفة تعدّه إلهاً؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلا من الإله؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون، ولكنهم — إذا ما عظموه وعظموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متدينين. وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى، أى القوة العليا المسيطرة على العالم، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرّب القربان باحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود المجرد. وقد حلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود[٧٨]، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم.

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات. ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيهم، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية. ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يجملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى

الأرض التى تحت أقدامهم ، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستمينوها بالأدعية وبالرقى السحرية . وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور إلاى — چنچ أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعرّافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار[٧٩] . وكانوا يعرضون للموت من يولد لهم من الأطفال فى أيام « النحس »[٨٠] . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيرة يقتلن أنفسهن فى بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن[٨١] . وكانت نفوس الصينيين عامة وفى الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التى تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوق إلى عقيدة تجد فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحيى موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً فى دين جديد . لقد كانت الدوية فى رأى الأستاذ القديم وفى رأى چوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤلهوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم ينظروا إليها على أنها ثمن يؤدونه فى هذه الدار ليشتروا به الحياة فى الدار الآخرة[٨٢] . فلما كان القرن الثانى بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير فى صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافا يقال إنه أودى بحياة عدد غير قليل من الأباطرة الصينيين لكثرة إدمانهم إياه[٨٣] . وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين فى سشوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلسم بسيط يعطيهم إياه فى نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم[٨٤] . وأقبل الناس على الدين الجديد زرافات ووحداناً ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذى لا ينضب له معين . واتخذ الناس لودزه إلهاً يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه حملا سماويا ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه وُلد كامل العقل طاعناً فى السن لأنه أقام فى بطن أمه ثمانين عاماً[٨٥] . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ نارية تنفجر فى أفنية الهياكل ويبتهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بمواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عُبَّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية ألف عام عقيدة الملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح لينتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس فى فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذى قضى عليها لم يكن منطق كنفوشيوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر منها هى نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث السلوى فى نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التى بدأت تنتقل من الهند إلى الصين فى القرن الأول الميلادى هى العقيدة الجامدة المكتئبة التى نادى بها « المستنير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان فى غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار ورياض . واتخذت على توالى الأيام صورة المركبة الكبرى أو الهياينا التى وفق فقهاء الكتشكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترقون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتبها حاكم الجنة ، وكوان — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من **اللوهان والأرباط** — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين فى كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لكى يساعدوا بنى الإنسان الحيارى المعذبين .

ولما ألفت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المعذبة وجهها شطر البوذية كما ولى العالم الرومانى وجهه فى ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعيها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان فى نفوس الصينيين امتزاجا تاما ؛ وأخذ الأباطرة يضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة يأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت فى الأديرة وعقمت فأضحت لا تفيد منها البلاد شيئاً . لكن الحكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للكهنة أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقتا الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الكنفوشية ديناً أرستقراطيا لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاى — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يحجوا إلى هذه الهياكل مراراً كثيرة إظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم فى إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورقى كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحل كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد فى نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل فى عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشئومين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسى لم يكن كبيراً فى يوم من الأيام — نهضةُ الكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونصب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عُبّاد إلا كهنتها الفقراء المعدمون.(٨٦)

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية فى دين الصينى الساذج . ذلك أن الأديان فى الصين ليست محدودة مانعة كما هى فى أوربا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد فى يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين فى تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً فى العقائد نفسها ؛ فالصينى العادى من عبدة مظاهر الطبيعة ودوِّىّ وبوذى وكنفوشى فى وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف ألا شىء فى هذا العالم محقق مؤكد ، ويقول فى نفسه لعل رجال الدين على حق ولعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كلَ هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصينى لا يعبأ كثيراً بالآلهة ما دام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هيا كل الدوية والبوذية فى رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بخير فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب فى صلاته أن ينال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه فى هذا العالم الأرضى[٨٧] . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر فى النهر . ومن الأمثال الصينية المأثورة : «ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع[٨٨]» .

ومن أجل هذا لم يقبل الصينى العادى بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذانك الدينان يمنيانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذى يريده بحق هو دين يضمن له السعادة فى هذه الأرض . وإذا قيل إن فى الصين مسلمين فجوابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين فى الصين ليسوا فى

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب[٨٩] . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور ناى دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحمى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا فى عام ٧٨١ نصباً تذكارياً سجلوا عليه تقديرهم لهذا المتسامح المستنير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية فى القريب العاجل جميع أنحاء البلاد[٩٠] .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستنت تؤيدهم الأموال الأمريكية التى لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فماذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين فى الصين فى هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً فى المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية فى ألف عام كاملة[*] .

(*) لقد فاتت المسيحية فرصة أتيحت لها فى القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثولكية الرومانيه فى الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حريصاً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسيلة للتوفيق بين العنصرين الأساسيين فى الديانات الصينية — عبادة الأسلاف وإجلال السماء — وبين العقائد المسيحية من غير أن يقوضوا دعائم النظم المدنية المتأصلة فى الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقى . لكن رهبان الدمنيكيين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحى على أصوله الدقيقة ، وأخذوا يشهرون بكل ما فى العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم ويقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج — شى رجلا مستنيراً شديد العطف على المسيحيه ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية بعض الشروط ؛ فلما أن أدت الكنيسة المسيحية فى الصين رسميا موقف الدمنيكيين والفرنسيسيين الحامد الشديد قبض يده عن معونة المسيحية ، ولم يكتف خلفاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلبى بل قرروا أن يقاوموها مقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين فى الأيام الأخيرة ونزعتهم الاستعمارية من العوامل التى أضعفت قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التى يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

الفصل الخامس

حُكْم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية فى المجتمع الصينى — الأسرة — الأطفال — العفة — الدعارة — العلاقات الجنسية قبل الزواج — الزواج والحب — الاقتصار على زوجة واحدة وتعدد الزوجات — التسرى — الطلاق — إمبراطورة صينية — الحكم الأنوى للذكور — خضوع النساء للرجال — الخلق الصينى

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لها، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لاغنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التى أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينيتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هى الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقى. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقى جيلا بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصينى، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصينى من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نوائب وما اجتاحها من أعاصير سياسية. وفى ذلك يقول فلتير: « إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه فى نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقى »[٩٢] ويقول كنفوشيوس فى هذا المعنى نفسه: « إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم »[٩٣].

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذى يهدف إليه القانون الأخلاقى هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المعقول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الغزاة فهى فى حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنازع البقاء بين الناس فى الأسرة الكبيرة والبيئات المزدحمة فإن هذا التنازع نفسه سيقضى على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة. ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقربوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا فى الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفى ذلك يقول منشيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »[٩٤] .

وكان الآباء يدعون فى صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل فى الحقول وأثبت منهن جنانا فى ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة فى البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى فى وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبئا على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم. وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب فى إعالتهن تركتهن فى الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية[٩٥] دون أن تشعر بشىء من وخز الضمير. وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحل فى تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء فى بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحنانهم[٩٦] . وكان الأطفال يتركون فى المنزل فى الجناح الخاص بالنساء ، وقلما كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبلغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفى لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلا تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمح لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والمحاظى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صورياً[٩٧] .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص فى بناتهم ، وقد نجحوا فى غرس هذه الفضيلة فى البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن فى بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة[٩٨] . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواخير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار ، يستمتع به الرجل كما يشتهى من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط فى أية عادة من العادات[٩٩][٠] .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة فى الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقرا للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم[١٠١] .

ويقول ماركو پولو إنه شاهد فى عاصمة كوبلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جمالهن . وهؤلاء البغايا مرخص لهن

---

(١) وكان الرحال فى بعض الأحيان يعدون أنفسهم حهرة لقضاء الليل فى بيوت من بيوت الدعارة بالصورة الخليعة والباهات والأغانى[١٠٠] . ومن واجبنا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة فى الزوال فى هذه الأيام .

بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبهن من الوجهة الطبية ، وتقدم أجلهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية[١٠٢] .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن « بالبنات المغنيات » مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن فى بيوت الأزواج لتسلية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات فى الأدب والفلسفة وممن يجدن الموسيقى والرقص[١٠٣] .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة فى صلاتهم بالنساء قبل الزواج ، كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ، وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفى السامى . على أنه قد ظهرت كتابات تصف هذا الحب العاطفى فى عهد أسرة تانج ؛ وفى وسعنا أن نرى شواهد دالة على وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد فى قصة واى شنج . فقد تواعد هو وفتاة أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء قد علا فوق رأسه وأغرقه[١٠٤] . وما من شك فى أن واى شنج كان أعرف بحقائق الأمور مما يبدو فى هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفى هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالمحبوب وتعلقاً به كان بين الرجال بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون فى هذا أشبه الناس باليونان[١٠٥] .

ولم يكن للزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط زوجين أصحاء بعضهما ببعض لكى تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه الرابطة لم يكن يصح فى اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا هم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة فى حق الأسلاف وفى حق الدولة وفى حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون فى أيامهم الأولى يعيّنون موظفاً خاصا عمله أن يتأكد من أن كل إنسان فى الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين[١٠٦] . وكان الآباء ينظمون خطبة أبنائهم وبناتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماى — رن = وسطاء)، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحُلُم وقبله أحياناً وقبل أن يولدوا فى بعض الأحيان[١٠٧] . وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار ، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذى يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة، ولكن الفتاة كان ينتظر منها هى الأخرى أن تأتى معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون فى الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان فى العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل فى عزلة شديدة عن خطيبها حتى تزف إليه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالا — ولقد كان هذا الاحتيال مستطاعاً فى بعض الأحيان —، ولكنه فى كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها فى حفلة الزفاف وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحتسى العريس من الخمر ما يكفى لأن يزيل ما عساه أن ينتابه من حياء يعد فى عرف الصينيين جريمة لا تغتفر[١٠٨] . أما البنت فكانت تدرب على أن تكون حيّة ومطيعة فى وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها فى بيت أبيه أو بالقرب منه ، حيث تكدح كدحاً فى خدمة زوجها وأمه حتى يحين

الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هى نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوياء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات فى الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان فى نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم فى هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم فى العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تحث زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هى نفسها تتبنى ابن إحدى المحاظى . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن فى أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاظى اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلات الجنسية ، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية[١٠٩] .

ومن أجل ذلك ترى القصص والأخبار الصينية تثنى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خليلات لمولاى »[١١٠] وكانت الأسر ينافس بعضها بعضا فى أن ينلن شرف الحظوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصيان ليحرسوا له حريمه وليعنوا ببعض الشئون الأخرى فى بلاطه ، وكان هؤلاء الخصيان يخصيهم آباؤهم وهم فى سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم[١١١] .

ولم تكن الزوجات الثانيات فى جنة الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإماء ، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء والبنات ، تعتمد مكانتهن فى الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاما على عدد من يلدن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذ كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان فى وسعها أن تنعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويُسرٍ فى النظام الرتيب الذى هيئت له والذى ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرتبطين برباط الزوجية فى تلك البلاد كانا يعيشان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لاتقل فى ذلك عن عيشة الزواج التى تعقب الحب الروائى فى البلاد الغربية . وكان فى وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأى سبب كان ، لعقمها أو لثرثرتها[١١٢] ، ولم يكن من حقها هى أن تطلّق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبويها وإن كان هذا لايحدث إلا فى القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلا ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعيا وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس فى أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذى اشتق منه لفظ « امرأة »[١١٣] ، واللفظ الصينى المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوى » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن فى البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد[١١٤] ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شئون الدولة إلا متتبعة لخطى الإمبراطورة « لو » التى حكمت الصين حكما صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » قاسية لاتلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسم ، وكانت تغتبط بتقتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديشى ، وكانت تختار الملوك وتخلعهم عن

عرشهم ، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقأ عيونهم ثم تلقيهن فى المراحيض[١١٥]. وكان التعليم منتشراً بين نساء الطبقات العليا فى الأيام القديمة وإن كان عدد من يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين فى أيام المنشو لايكاد يبلغ واحداً فى كل عشرة آلاف . وكانت كثيرات من النساء يقرضن الشعر ، ولقد أتمت پان چاو أخت المؤرخ پان كو الموهوبة (حوالى عام ١٠٠ م) تاريخه بعد وفاته ونالت حظوة كبيرة عند الإمبراطور[١١٧] .

ولعل قيام نظام الأقطاع فى الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية والاقتصادية فى تلك البلاد ؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية . ذلك أن الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون فى العادة مع أكبر رجال الأسرة . ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكا مشتركا فإنها كانت تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها . فلما أن حل عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً فى جميع الأمور ، فكان فى وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً ، وإن لم يفعل هذا إلا إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى ؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول بينه وبين هذا إلا حكم الرأى العام[١١٨] . وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلافى أوقات قليلة نادرة ، وإذا مات كان ينتظر من أرملته ألا تتزوج بعده ، وكان يطلب إليها فى بداية الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له ؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع فى الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد[١١٩] . وكان الصينى يجامل زوجته كما يجامل كل إنسان سواها ، ولكنه كان فى حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة غير طبقتهم . وكان النساء يعشن فى أقسام خاصة من المنزل ، وقلما كن يختلطن فيه بالرجال، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من الطبقات التى يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن.

وكان الرجل لا يفكر فى زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدّها وطاعتها ؛ يشهد بذلك ما كتبته السيدة بان هو — بان إحدى بنات الطبقة العليا فى رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية فى التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان فى الجنس البشرى ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله فى حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها »(١٢٠) .

ويغنى فوشوان قائلا :

ألا ما أتعس حظ المرأة !
ليس فى العالم كله شىء أقل قيمة منها .
إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،
كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،
تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،
والرياح والتراب آلاف الأميال ؛
أما البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ،
ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،
وإذا كبرت اختبأت فى حجرتها ،
تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،
ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها —
على حين غفلة كما تختفى السحب بعد هطول الأمطار ،
وهى تطأطئ رأسها وتجمل وجهها .

وتعض بأسنانها على شفتيها ،
وتنحنى وتركع مراراً يخطئها الحصر[١٥١] .

قد يكون فى هذه المقتبسات ظلم للبيت الصينى ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بعض الأطفال ، ولكن كان فى البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر فى الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها فى استخدام لسانها ، وكان فى وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفر من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية فى هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوى ليس فى مقدورها أن تكون أسرة دمقراطية ، وهى أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين فى الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعى ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة فى وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة فى أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل فى المدينة ، وقلّت أهميته بانتقال واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثنى كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذى كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التى تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أى نظام اجتماعى ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصينى العادى كان مثلا يحتذى فى طاعة الأبناء للآباء ، وإخلاصهم ووفائهم لهم ، وفى احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضاً واختيار(*) وكان الصينى يقبل الحكم

(*) توضح الأقاصيص الصينية هذه الصفات توضيحاً فكهاً بما ترويه فى قصة هكوجا الذى كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكى أبداً . لكنه بكى فى يوم من الأيام فى أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكى لأن أمه بعد أن كبرت وضعفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بضرباتها(١٢٢) .

الأخلاقية التى جاءت فى اللى — شى أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحى حياته حسب ما فيها من قواعد المجاملة العاطفية التى أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم ينله أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الخمال الذى ينقل الأقذار فى الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبى الذى باعه الأفيون . ولقد تعلم الصينى فن التراضى والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوه المغلوب . ولقد كان فى بعض الأحيان عنيفاً فى قوله ، وكان على الدوام ثرثاراً ، وكثيراً ما تراه قذراً أو ثملا يدمن القمار ويلتهم الطعام التهاماً(*) ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس فى غير إلحاف(١٢٤) ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة فى صراحتها(١٢٥) ، ويجرى وراء الذهب جرى الأمريكى كما نراه فى صوره الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظا غليظ القلب ، إذا توالت عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل فى جماعات كبيرة . ولكنه فى جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحتقر المجرمين والمحاربين ، مقتصد مجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط فى أسلوب حياته لا يحب التظاهر والتصنع ، شريف إلى حد كبير فى معاملاته التجارية والمالية . وكان من عادته الصبر على النوائب ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان والعذاب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، ويصبر عليهما صبر من يرى أن كل شىء مقدّر عليه فى الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلا على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجهه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق فى كثير من المدن وبيد كل منهم طبق وبرد وفنجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر العابر(١٢٥) .

مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدائنه بالنقوش الملونة ويتنعم فى حياته بأرقى أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى حين ، ما تردت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها فى الداخل ، واحتكاكها بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها فى فترة من فترات عزها ومجدها فى عهد أسراء چو أو فى عهد منج هوانج آوهواى دزونج أوكانج — شى . ذلك أن الصينى فى تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرقى المدنيات وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

الفصل السادس

حكومة يثنى عليها فلتير (١٢٦)

الفرد المغمور — الحكم الذاتى — القرية والإقليم — نراخى القانون — صرامة العقاب — الإمبراطور — الرقيب — المجالس الإدارية — الإعداد للمناصب العامة — الترشيح بالتعليم — نظام الامتحانات — عيوبه — وفضائله

إن أكثر ما يروعنا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الدمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكما ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن النزعة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولا عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعة أعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعة أعماله ؛ وكان فضلا عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الحواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلا عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرد من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه النظم

الشعبية التى نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختيارى هى التى أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية فى داخل هذا الإطار من نظم الحكم الذاتى التى أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التى تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشامخة والصحارى الواسعة والمجارى التى تتعذر فيها الملاحة أو لاتقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفى لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربعمائة مليون من الأنفس — كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالا ذاتيا يكاد يكون كاملا من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هى القرية ، يحكمها حكما متراخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكمهما معاً مدينة « فو » ومن كل فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « شنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد المنشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم . وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونه ، ويجبى ضرائبه ، ويفصل فى قضاياه ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكما ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم (١٢٧) . ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل فى المنازعات التى يعجز المحكمون عن تسويتها بالحسنى ، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية . وكان كل إقليم ولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية فى أعمالها ، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام فى داخل حدودها . وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية . ومما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف فى دوائرهم وأقاليمهم ، ولا تتسع إلا فى القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام .

وفى هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً ، بغيضاً ، متبايناً . وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسووا نزاعهم بالتراضى خارج دور القضاء . وكانوا يعبرون عن آرائهم فى التقاضى بمثل هذه الحكم والأمثال القصيرة القوية :« قاض برغوثاً يعضك » و « اكسب قضيتك تخسر مالك » . وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التى تبلغ عدة أهلها آلافاً مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى المحاكم[١٢٨] . وكانت قوانين البلاد قد جمعت فى عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصرت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جدية لوضع قانون مدنى . وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامى لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة ، وإن كان فى استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا فى بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضى[١٢٩] . ولم يكن هناك نظام للمحلفين ، ولم يكن فى نصوص القوانين ما يحمى الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويعتقلوه . وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين[١٣٠] ، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكى يقروا بجرائمهم ، ولم يكن هذا التعذيب الجسمى ليزيد إلا قليلا على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه فى أكثر المدن رقياً . وكان العقاب صارماً ، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان فى معظم

بلاد القارة الأسيوية ؛ وكان أوله قص الشعر ويليه الضرب ثم النفى من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان المتهم ذا فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر[١٣١] . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر فى الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم فى هذا كشأننا نحن فى هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنع السطو فى الطرق العامة أو الارتشاء فى وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع فى معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهب الصين درجة من النظام الاجتماعى والأمن والاطمئنان الشخصى لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين[١٣٢] .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزعزع ، وكان يحكم من الوجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى(*) فى هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلهى هذا كانت له السيطرة على الفصول ، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوى المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هى القانون وأحكامه هى القضاء الذى لا مرد له . وكان المدبر لشئون الدولة ورئيس ديانتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحده من الوجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التى انحدرت من الماضى المقدس . وكان معرضاً فى أى وقت لأن يعزّر على يد رجل ذى مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان فى واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(*) ومن أجل هذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان — شان أى التى « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوربيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسموا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين فى أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث مراراً فى تاريخ الصين أن عزر الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور چياه تشنج (١٧٩٦ — ١٧٢١) بالاحترام اللائق بمقامه العظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال فى صلاته بالممثلين وبتعاطى المسكرات فما كان من چياه تشنج إلا أن استدعى سونج الممثول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطيع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليُقطع رأسى » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختار أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعينه حاكماً على إقليم إيلى[١٣٤] .

وأضحت الحكومة المركزية على مرّ الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم فى العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة فى كل يوم فى ساعات الصباح المبكرة لينظر فى شئون الدولة السياسية . وكان يعلو عليه فى المنزلة ، ولكن يقل عنه فى السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلى » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والعقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسنكيانج ، والتبت ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن فى العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشئ فى

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعوث التى تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها ، واحتكرت بيع الملح ، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية ، ولكن فقر السكان ، وما كانت تعانيه من الصعاب فى جباية الضرائب وللكوس ، وما يتصف به الجباة من الخيانة ، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بحاجات القوى البحرية والبرية التى كان فى وسعها لولا هذا العجز أن تنقذ البلاد من مذلة الغزو والهزيمة(*). ولعل أهم أسباب هزائمها هو فساد موظفى حكومتها ؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف فى خلال القرن التاسع عشر ، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة فى الوقت الذى كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان لسلب استقلالها ، وانتهاب مواردها ، والقضاء على أنظمتها .

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها فى دقتها ، وتعد فى جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدام العموميين . لقد كانت وسيلة جديرة بإعجاب أفلاطون ، ولا تزال رغم عجزها وتخلى الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة . وكانت

(*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية فى أواخر القرن الماضى نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية فى العام ، ويضاف إليها من الإيرادات التى تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى(١٣٦) ، وإذا وازنا بين هذه الإيرادات التى لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين الـ ١٥٠ مليوناً من الدولارات التى فرضتها اليابان على الصين غرامة حربية فى عام ١٨٩٤ والغرامة التى فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكين لم تكن مسألة انهيار الصين فى نظرنا أكثر من مسألة حسابية .

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرستقراطية والدمقراطية : فهى تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها. ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة فى مدارس القرى — وهى معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلا على حجرة واحدة فى كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سراة القرية تعليما أولياً ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناؤه أميين[١٣٧] . ولم تكن الدولة هى التى تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقى فى الصين ، كما بقى الزواج فيها ، مستقلا عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارما فى هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم فى مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة العدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر فى فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذى كان يصرف فى العمل فى الحقول كان يعوض بفصول مسائية فى ليالى الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشيوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصا من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فلسفة المعلم كونج ، ويناقشون فيها مدرسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته فى ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها فى قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،

وكان الصبى يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلا بالحقائق ناضج العقل(*).

وكان هذا التعليم هو الأساس الذى أقامت عليه الصين - فى عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفى عهد أسرة تانج بصفة نهائية — نظام تولى المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين فى هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولى المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذى عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هى أن نتيح لكل الرجال دمقراطيا فرصاً متكافئة لأن يدربوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرستقراطيا على من يثبتون بأنهم أليق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد فى أوقات معينة امتحانات عامة فى كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا فى سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن فى قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفى مقدار ما يعرف من الشعر الصينى ومن تاريخ الصين ، وفى قدرته على أن يكتب أبحاثاً فى السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان فى وسع من يخفق فى الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاى التى تؤهله لأن يكون عضواً فى طبقة الأدباء ولأن يعيّن فى

(*) وكان فى وسع الأطفال بعد أن يتموا الدراسة فى هذه المدارس أن يلتحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد الفقيرة فى أدواتها واستعدادها . ولكنهم كانوا فى أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس فى مناز لهم فى عاد قليل من الكتب الثمينة وكان الموسرون فى بعض الأحيان يعينون الفقراء من الطلاب على مواصلة الدرس فى هذه الكليات على أن يكون ما يتفق عليهم فرضاً يؤدونه مع فوائده حين يعينون فى منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصغرى فى الحكومة الإقليمية ؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد فى الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه فى بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصغرى ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائى الشديد الذى يعقد فى پيكين . وكان فى تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوى على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المتسابقون ثلاثة أيام منفرقة فى عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل فى موضوعات تعلن لهم بعد دخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — فى رأيهم — هى التى يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة فى هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة فى : « صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزانج دزى : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلئ ثم يبدو أنه فارغ » . ولم يكن فى أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمى إلى معرفة ما له من حكم صادق وخُلق قويم وكان كبار موظفى الدولة يُختارون من الناجحين فى هذا الامتحان النهائى .

وتبين على مر الزمن ما تنطوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش فى الامتحان أو فى

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر[١٣٨] ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره[١٣٩] . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يعد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آليا . كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعينت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد يأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أو مقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوي على كل العيوب التي يمكن أن ينطوي عليها أي نظام حكومي يبتدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هي عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما في هذا النظام[*] .

أما مزاياه فهي كثيرة : فهو بريء من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعي الدنيئة وللنفاق والخداع في تصوير النتائج ، ولا تدور فيه المعارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبة والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسنم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة دمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرستقراطية في أحسن صورها ، لأنها

(*) يقول الدكتور لا ثورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بني الإنسان عاشت في رخاء وعاشت قانعة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداتهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا الرأي أيضاً رأي العالم الكبير برنكلي[١٤٠]

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً دمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تقتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لا سادة المال(*) .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الناحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقضّ قوى التطور والتاريخ القاسية التى لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التى كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميرا .

(*) يقول السير ربرت هارت . « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويبتهجون بالآداب » ويقيمون فى كل نوادى صغيرة للتعلم والدرس ولمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »